قصص لا تكتمل

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

منقولة عن موقع إضاءات

لأنني من عشاق كتابات د. أحمد خالد توفيق منذ الصغر، فقد فكرت في جمع قصصه ومقالاته المجزأة في كتيبات صغيرة، يحتوي كل كتيب على قصة مُكتملة أو موضوع مُستقل، حتى يسهل على محبيه الإستمتاع بكتاباته الرائعة.

مدونة اقرأ
تاريخية ، ثقافية ، سياسية

قصص لا تكتمل

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

رسوم : طارق عزام

منقولة عن موقع إضاءات

هكذا تولد الأفكار في الليل وتتبخر في الصباح. كان مصطفى يعرف جيدًا هذا الجو.. لكنه الليلة قرر أن يكتب ويكتب إلى أن يهده التعب. الزوجة نائمة والأطفال نائمون وهدوء البيت القاتل يغري بالعمل. حتى القط يستلقي على الأرض وقد تحول إلى كرة من الفراء.

أعد لنفسه كوبًا من الشاي في المطبخ مع شطيرة من الجبن، ثم اتجه إلى غرفته حيث الكمبيوتر يتسلى بحافظة الشاشة بانتظار القصة القادمة. كانت الأفكار تزدحم في رأسه.. ألف فكرة وفكرة، لكنه لا يعرف أبدًا كيف ينهي هذه الأفكار.. وقد كان يؤمن بمقولة: «لا تبدأ قصة لا تعرف نهايتها». لذا كان يهمل الكثير من الأفكار الجامحة التي لا يعرف إلا الله كيف يمكن أن تنتهي.

رشفة شاي.. قضمة شطيرة.. نفس من لفافة التبغ..

تأمل المؤشر الذي يومض في ركن الشاشة الأيمن. يرى الفكرة تولد ويعرف السطر الأول وكيف سيكون. يحب صوت مفاتيح الكمبيوتر تنضغط تحت أصابعه خاصة لو تم هذا بسرعة. ستكون فكرة جيدة حتمًا.. ليس لديه تصور عام عن كيفية إنهائها لكنه سيعبر هذا الجسر عندما يصل له..

بخط غليظ مكبر كتب في منتصف السطر

لقاء مع سالومي

عندما تلقى د. عدنان دعوة إلى ذلك الحفل الذي تقيمه سلمى، فإنه تحمس.. سلمى مدللة رائعة الجمال

من أسرة ثرية، ولم تكن من صديقاته ولم يعتبر نفسه في شلتها قط، لكنه فوجئ بأنها تدعوه هو ورفيقه صالح إلى الحفل الذي تقيمه في الساحل الشمالي.

لم يكن عدنان متزوجًا.. وكان يجهل الكثير عن عالم الأنوثة، لهذا بدا له كأن هذه الفتاة تدعوه إلى الفردوس. وقد قرر أن يشتري بدلة جديدة وربطة عنق أنيقة.

قال له صالح ساخرًا:
- الحفلات من هذا النوع عنوانها التحرر والانطلاق.. يجب أن تلبس ثيابًا (كاجوال)، وإلا بدوت لهم قرويًا ساذجًا

بصعوبة اقتنع د. عدنان وبحث عن تي شيرت أنيق يلبسه، ولم ينس أن يضع عطرًا ثمينًا. سأل صالح في دهشة:
- ما الذي تقصده سلمى بهذه الدعوة؟

قال صالح في استمتاع وهو يقود السيارة الرخيصة متجهًا نحو الإسكندرية:
- عندما أتلقى دعوة إلى فيلا في الساحل الشمالي تنظمه فتاة بهذا الحسن، فأنا لا أضيع الوقت في أسئلة سخيفة.

بعد ساعات دخلت السيارة إلى القرية السياحية التي تبدو خاصة جدًا. وفي النهاية كان ذلك الحفل المقام على الشط.. أضواء ملونة مبهرجة تتدلى من الأشجار، وهناك مشاعل عملاقة تبث حولها النور والنار والدفء. بوفيه مفتوح يبدو واضحًا أنه عامر، وسماعات عملاقة تحدث جلبة رهيبة.. الموسيقا التي تجعل ضربات قلبك تختل..

ومن مكان ما ظهر فتى يلبس قميصًا مشجرًا على مايوه وهو حافي القدمين، وكان يتأبط ذراع سلمى.. سلمى.. سلمى التي كانت ترتدي ثوبًا غريبًا يذكرك بمجموعة من الأشرطة الملتفة حول جسدها... لابد أنها كانت أروع شيء في العالم.

رفعت كأسًا مرحبة بالضيفين المذهولين وهتفت:
- حضوركما يسعدني.. لكن أرجو أن تتحررا من هذا الصمغ.

بدأ الشابان يكتشفان ذلك الاختراع العجيب المدعو (فتيات). كل واحد له أم وأخوات وبنات جيران، لكنهن لا يمتن بصلة لهذا الحشد العجيب من الحوريات.. هذا الاختراع العجيب يضحك ويسكر ويرقص بلا توقف.. ولا شك أن المشهد جعل الشابين يفقدان صوابهما. كل شيء كان مدوخًا..

بدأ كلاهما يرقص من دون براعة. حالة عامة من الهستيريا تشبه شعور من يذهب إلى الزار.

هنا دنت سلمى من د. عدنان وقالت له في همس:
- أريد أن أنفرد بك بعيدًا

قال في غباء:
- طبعًا.. طبعًا

وجرته من يده خارج دائرة اللهب والضوء حيث وقفا في الظلام، فسمعها تشهق في انفعال وقالت له:
- أردت أن أقول إنني أريدك وأحتاج لك.. لم تكن هناك فرصة أخرى لأقول لك هذا إلا الآن...

ارتجف انفعالاً.. كان يجد من السخف أن يحب المرء فتاة لمجرد أنها جميلة.. الجمال ليس مبررًا كافيًا للحب، لكنه في هذه اللحظة شعر بأنه متأهب ليقع في غرامها..

قالت له:
- سأطلب منك طلبًا واحدًا. طلبًا عسيرًا نوعًا.. لكني سأفعل أي شيء كي تنفذه

لم يكن يرى وجهها.. كان في الظلام.. لكنه سمعها تقول في انفعال:
- اسم سلمى قريب جدًا من اسم سالومي.. سالومي رقصت أمام زوج أمها كي يأتيها برأس يوحنا المعمدان.. وقد تم لها هذا فعلاً.. أنا سأفعل شيئًا مماثلاً لو قبلت أن تنفذ ما سأطلبه

سألها في قلق:
- وماذا ستطلبين؟

- ستعرفه بعد الرقصة...

كانت الموسيقا تصل لهما مع ارتجاجات تحت الأرض... وكان اللحن صاخبًا. ابتعدت عنه بضعة أمتار ثم هتفت وهي تركل الأرض متمايلة كثعبان:
- لا أحد يرانا هنا.. نحن بعيدان.. أنت تراني بصعوبة في الظلام، لكني أؤكد لك أن ثوبي مكون من سبع قطع.. وأنني لا ألبس شيئا تحته..

ثم بدأت تتلوى.. وفي هلع وبقلب واجف أدرك أنها نزعت القطعة الأولى..
- واحد!

سالومي نزعت ثوبها ذا السبع قطع أمام زوج أمها فطار صوابه. واضح أنك ستنفذ كل ما تطلبه منك يا د. عدنان.. ولكن ما هو بالضبط؟

- اثنان!

عند هذا الحد توقف مصطفى..

لقد أدرك في رعب أنه لن يستطيع أن يكمل القصة، فهو لا يعرف الشيء الذي يجعل امرأة تتعرى أمام رجل غريب كي يحققه. لن يقدر على استكمال هذه القصة كما هو واضح. البداية جيدة لكنه لا يعرف كيف يستمر.. طبع القصة على الطابعة المتصلة بالكمبيوتر، ثم أعد لنفسه شطيرة جبن أخرى وأعاد القراءة..

لا جدوى..

كور الورق وألقى به في القمامة وأطلق بعض السباب. ليس هذا شعورًا جديدًا على كل حال. دخل الفراش ساخطًا فراح يقرأ لربع ساعة ثم أطفأ النور ونام..

في الصباح تناول الإفطار شارد الذهن.. استعاد خيوط قصة أمس، فبدأ يشعر مع الوقت أنها لم تكن سيئة لهذا الحد.. لربما يمكن عمل شيء منها..

فتح جهاز الكمبيوتر حيث كان قد تركها على سطح المكتب.. لقد اختفت!!.. لكن كيف؟ هو لم يمسحها..

انحنى يفتش في القمامة فوجدها فارغة. زوجته تخلصت من القمامة أول شيء في الصباح الباكر. شعر بغيظ شديد. يستطيع أن يعيد كتابة القصة لكنه لا يجد في نفسه الرغبة لاستكمالها.. وهو لم يجد الحل السحري بعد.

سيحاول الليلة كتابة قصة أخرى.

****

من جديد بدأ صوت طرقات أصابع مصطفى على مفاتيح لوحة الكتابة.. تك تتك.. تتك.. تك.. لفافة التبغ تحرق أنامله والقهوة تملأ معدته وتتصاعد إلى رأسه. سيكون الثمن هو الأرق، لكن لابد من ثمن لهذا التوهج الفكري الذي يشعر به.. الفكرة تولد.. الرأس يبرز.. ثم الجسد كاملاً.. الفكرة تصرخ وتعوي طالبة الرضاعة..

الحجرة مظلمة هادئة تفوح برائحة مبيد الحشرات، ودخان القهوة يتكاثف أمام الشاشة.. رائحة القهوة الزكية تملأ خياشيمه..

يرى على الشاشة ميلاد العنوان. كان من هؤلاء الكتاب الذين يضعون العنوان أولاً. كان يشعر بأن القصة ولدت بهذا الشكل وصار لها كيان وبيت ورقم قومي.. لم يستطع قط فهم الكتاب الذين يرجئون عنوان القصة إلى النهاية. ومن الغريب أنه قلما احتاج إلى تغيير العنوان فيما بعد..

وحيد في الظلام

ينتهي رأفت من كوب الشاي ويطفئ بقايا لفافة التبغ في المطفأة، ثم ينظر إلى الساعة.. الثانية عشرة والنصف. لقد تأخر أكثر من اللازم وبدأ يوم جديد جغرافيًا.

نهض رأفت وارتدى السويتر الذي وضعه على الأريكة جواره، وقال لسلوى معتذرًا:
– طالت سهرتي.. أنا آسف..

قالت سلوى ضاحكة:
– الوقت الطيب يمضي سريعًا.. كنت أحسبها التاسعة

– صباحًا؟؟؟

وابتسم في خبث، بينما نهض شريف من جلسته الكسول على الأريكة، فبدا واضحًا أن النوم يتسلل إلى وعيه لكنه يقاوم تأدبًا. قال لرأفت:
– هل تنوي أن تغادر الآن؟ لم لا تبقى حتى الصباح؟

قال رأفت وهو يتحرك نحو الباب:
– لابد أنك تمزح..

انفتح باب الفيلا لتظهر سيارة رأفت الناعسة في الظلام، وقد تغطت بالندى. لسبب ما شعر بأنها صديق قديم ينتظره ليقله إلى فراشه المريح..

– تصبحان على خير

هنا توقف شريف عن التثاؤب وقال في حذر:
– كن حذرًا في رحلة العودة

– تعرف أنني سائق حذر

قال شريف وقد اتسعت عيناه:
– ليس بالضبط .. هناك قصص مخيفة تتردد في هذه المنطقة.. أنت تعرف أن المقطم مخيف ليلاً. ليس كل المكان رحبًا، وهذه أول مرة تزورني فيها فلا أريد أن يحدث ما يعكر صفو الزيارة

– قصص مخيفة؟

– قصص مما يتداولها العجائز أو تخاف منها السيدات.. أعرف أنه كلام فارغ، لكن أنصحك بشيء واحد: لا تتوقف في طريقك لأي سبب..

أشعل رأفت لفافة تبغ أخرى وقال وسط الدخان:
– يعني لو فوجئت بطفل يقف في وسط الطريق ملوحًا بذراعيه.. فهل تقترح أن أدهمه؟

– لو كنت مكانك لدهمته!.. لماذا يقف طفل وحده على الطريق في المقطم ليلاً؟

ابتسم شريف... هذا السخف لا معنى له لكنه يجعلك تتوتر بالتأكيد.. التفكير في الرحلة الطويلة في الظلام إلى بيته ليس من الخواطر المريحة. بالإضافة إلى أنه يشعر بنعاس شديد.. يسهل أن يحدث شيء لمن يشعرون بنعاس.. الحقيقة أنه كان يجب أن يختصر السهرة ساعتين...

قال رأفت وهو يفتح السيارة:
– سأظل حيًا.. أعدك بهذا

ثم ركب وأدار المحرك ولوح بذراعه للزوجين.. لا أضواء سوى وهج سيجارته والضوء الناعس القادم من الباب حيث يقف الزوجان..

ما نوعية الخطر الذي يتكلم عنه شريف؟ واضح أنه يتعلق بالأشباح أو الجان.. شيء من هذا القبيل..

ينطلق في الطريق المظلم إلا من أضواء الكشافين.. يشعر بعصبية حقيقية.. لو أراد شريف أن يوتره فقد نجح فعلاً.

لتنته هذه الليلة بسرعة.. لتنته.. ماذا لو تلفت السيارة هنا؟ لو حدث عطل فإن.....

ضوضاء من المحرك!.. اللي يخاف من العفريت.....

بالفعل لا مزاح هنا. إن المحرك يرفض أن يدور. توقفت السيارة إلى جوار الطريق وهي تطلق أصواتًا تشبه صوت حشرجة المذبوح. كان سريع البديهة.. ألقى نظرة إلى مؤشر البنزين فأدرك أنه نفد.. لا توجد قطرة بنزين في السيارة، وهو خطأ يتكرر معه مرارًا لكنه لا يتعظ.. من الواضح أنه الليلة سيتلقى درسًا لن ينساه.

الطريقة هي أن يحمل جركن بنزين ويمشي في الظلام بحثًا عن محطة وقود قريبة، لكن كيف يجدها أولاً؟ ثم أنه لا يحمل جركن في السيارة..

من يطلب؟ ربما يطلب شريفًا، لكن في هذا قدرًا هائلاً من الإزعاج.. وشريف لا يحب القيادة ليلاً، دعك من أنه لن يتمكن من مساعدته في نقل البنزين. يطلب الميكانيكي في ساعة كهذه؟ مستحيل... فكر في مازن صديقه المحامي... إنه عزب ويسهر كثيرًا ويجيد التصرف.. سوف يأتي له خلال ساعة مع جركن مليء بالبنزين الجميل شهي الرائحة، مع زجاجة بلاستيكية سيقصها لتتحول إلى قمع.

الهاتف يرن.. الحمد لله أن هناك شبكة. الهاتف يرن بإلحاح.. أرجوك أن ترد يا مازن.. أرجوك أن ترد....

ثم جاء صوت مازن المطمئن يسأل عما هنالك..

بضع كلمات.. ثم قال مازن إنه سيأتي حالاً ومعه بنزين...

– مازن.. تأكد أولاً من أن سيارتك فيها بنزين!!

ضحك مازن كثيرًا ثم وضع السماعة.. والحقيقة أن هذه كانت المرة الأخيرة التي يتبادل فيها محادثة مع رأفت....

للحظات ظل مصطفى يرمق الشاشة..

القصة جيدة لكن استكمالها صعب فعلاً. لقد تم حشد القارئ لحدث مروع.. شيء يفوق الخيال سوف يظهر لرأفت حبيس سيارته... أي شيء مثل سفاح أو غولة أو مذءوب أو مصاص دماء هي أشياء يتوقعها القارئ ولن يندهش...

طبع القصة على الطابعة، ثم أمسك القلم وراح يتابع السطور التي كتبها..

بداية لا بأس بها لكن النهاية مستحيلة. وضع الورق على المكتب وقرر أن يخلد للنوم وفي الصباح قد تولد أفكار جديدة.. هذه بذرة قد تنمو بعد ليلة أحلام كاملة.

في الصباح تناول إفطارًا خفيفًا.. الزوجة ذهبت لعملها والأطفال في المدارس.

القصة.. ماذا حدث لها؟

هنا فوجئ بأن الورق غير موجود.. والقصة غير موجودة في ذاكرة الكمبيوتر..

هل تصرف دون أن يدري وتخلص من القصة ومحاها من الذاكرة؟ هل هو مجنون؟

لابد من كتابة بذرة قصة جديدة..

****

قال له الطبيب النفسي:
«بعض أدوية الاكتئاب تجعلك تتصرف بشكل غير واع.. تمشي ليلاً أو تفعل أشياء لا تدرك أنك فعلتها»

كان مصطفى يشك في بعض هذه الأدوية النفسية التي يتعاطاها لمرضه ثنائي القطبية، لكنه لم يتصور أن يصل الغياب عن الوعي لدرجة أن يمحو قصة كتبها، أو يتخلص تمامًا من أوراق طبعها..

قال مصطفى:
«سوف أتوقف عن أدوية الاكتئاب إذن.. فهذه الحالة تقلقني»

قال الطبيب ضاحكًا وهو يدير جهاز الواي فاي لتنبعث موسيقا ناعمة:
«النفس البشرية لغز... أعتقد أنك لا شعوريًا كنت تحمل كراهية لهذا الذي كتبته.. ثم تدخل اللاشعور ليجعلك تتخلص منه»

«سأحاول أن أعتقد ذلك»

ونهض مصطفى متثاقلاً.. لن يخبر زوجته في البيت أنه عاد لزيارة الطبيب النفسي، هي التي تؤمن أن هذا لا يعالج الجنون بل يصيب المرء السليم به .

****

عندما جاء المساء قرر مصطفى أن يكتب قصة جديدة مستغلاً الصمت والهدوء، وقرر أن يحافظ على الورق وعلى الملف جيدًا.. يجب أن يتأكد من أنه لم يمح الملف أو يحرق الورق..

ضم أنامله ثم طرقعها بعنف كأنه يتأهب لعمل مهم.. ثم أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وشفطة من قدح النسكافيه، ثم كتب بأنامل واثقة:

الغرفـــــة

الغرفة القديمة في بيت الأسرة، هي مخزن للكرار والمهملات والجرائد القديمة. مع حشد كبير من الثياب البالية نصف الممزقة. هناك شماعة تتدلى منها بعض الثياب، وهناك مرآة مهشمة.. وهناك قفص عصافير خال.. وهناك سمكة قرش محنطة خالية من اللحم لكنها تفتح شدقيها منذرة. هناك ساعة حائط محطمة وقد وثب منها زنبرك.. هناك ملصق على الجدار يصور فاطمة رشدي حسناء الماضي التي كانوا يسمونها صديقة الطلبة. هناك الكثير من الغبار وأكوام من نسيج العناكب والعث.. هناك بورص أو اثنان على السقف.

كان عاصم يكره البورص ويشعر أنه كائن مقزز، لكنه لم يكن كذلك يجرؤ على قتله.. ستكون عملية مثيرة للاشمئزاز بالتأكيد.

الجو حار في الغرفة، وبالطبع خانق تضيق به النفس. العرق يسيل على جبينه ممزوجًا بالغبار. يبدو أنه سيحتاج إلى حمام قبل أن يغادر الشقة الخالية.

يجب أن يجد الملف.. الملف الذي يحوي عقود شراء الأرض وصحة التوقيع. الأوراق التي فشل في أن يجدها في البيت كله. البيت الخالي على عروشه منذ وفاة الأب. منذ عام مات الأب وقبله بعشرة أعوام ماتت الأم.. ولم يكن أي من الأبناء يعيش هنا. كانوا قد تركوا الأب يعيش وحده لأن أحدًا لا يطيقه. الشيخ الكريه المتشكك الغاضب على الدوام، مع الشيخوخة التي جعلته ينسى النظافة الشخصية، لدرجة أنه كان يقضي حاجته في أي مكان. لم يكن أي من الأبناء يرغب في أن يستضيف هذه الكارثة، هكذا تركوا الأب وحده مع خادمة تدبر أموره صباحًا وترحل مساءً. منذ توفي الأب ظهرت مشكلة العثور على أوراقه.. لم يكتب وصية، لكن ما هي ثروته الحقيقية؟ ماذا يملكه بالضبط؟

تطوع عاصم بأن يفتش البيت جيدًا بحثًا عن الأوراق..

لقد جمع بعض أوراق مهمة، لكنه لم يجد بعد ضالته.. وعندما دخل هذه الغرفة القذرة تذكر أنه لم يدخلها منذ تزوج وفارق البيت... نحو عشر سنوات...

خرج من الغرفة واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه.. فتح المحبس المغلق منذ عام.. وشعر بالماء المنعش يغمر وجهه..

عاد إلى الغرفة الكئيبة وراح يحاول جاهدًا فتح النافذة.. لكن مقبضها كان متصلبًا من الزمن.. لا جدوى. لا سبيل لدخول الهواء والنور هنا..

استطاع بعد جهد أن يزيح كومة من الخرق البالية فوجد تحتها صندوقًا خشبيًا عتيقًا يبلغ طوله مترًا وعرضه نصف متر تقريبًا. الغطاء مثبت جيدًا.. بحث حوله حتى وجد مطرقة نجار من الطراز الذي يحمل جزءًا مشقوقًا كذيل الصرصور، يستخدم في انتزاع المسامير. أولج هذا الجزء في غطاء الصندوق وراح يحاول جاهدًا أن يفتح..

هيا... اضغط أكثر..

الدرس الذي يجب أن نتعلمه هو ألا نفتح صناديق لم نغلقها نحن. لقد انفتح الغطاء بصعوبة.. وعلى الضوء الخافت المنبعث من مصباح السقف، وجد أن الصندوق يضم أشياء غريبة.. كانت هناك عظام.. عظام آدمية لا شك فيها..

عظام نظيفة مضى عليها زمن بعيد..

لم يكن للأسرة أي علاقة بدراسة الطب. لم يكن لها أصدقاء أطباء.. لا يوجد تفسير لوجود هذه العظام...

كان عاصم يلهث في انفعال.. الأمر مريب بحق.. هل قتل الأب شخصًا وأخفى عظامه هنا؟ أم لعلها الخادمة هي التي أخفت شخصًا هنا حتى تحلل.. كانت برفقة شيخ فان لا يميز شيئًا...

في هذه اللحظة انغلق باب الغرفة، ووجد عاصم نفسه محبوسًا في الضوء الخافت!

عند هذا الحد شعر مصطفى بثقل في أفكاره وأهدابه وأنامله..

يجب أن يتوقف هنا. وكان مدمنًا للقهوة والنسكافيه، لذا لم تكن هذه المشروبات قادرة على أن تسلبه النوم..

تثاءب.. لكنه نهض إلى الطابعة فشغلها.. سرعان ما خرجت له القصة على شكل أوراق. ثم أنه نسخ الملف على ذاكرة (فلاش). نهض متثاقلاً ففتح المكتب ووضع فيه الأوراق والذاكرة، ثم أغلق الدرج بالمفتاح.. واتجه إلى المكتبة العالية فوضع المفتاح فوقها بصعوبة..

لا يستطيع شخص يمشي أثناء النوم أن يصل لهذا المفتاح دون معاناة، والمعاناة ستجعله يصحو من النوم..

ثم أنه اتجه إلى الفراش.. وسره أن زوجته تشعر بأرق وتتقلب كثيرًا. مصائب قوم عند قوم فوائد.. هكذا ستعرف إن كان قد صحا من النوم ليمسح قصته...

غير أن الذعر استبد به في الصباح...

أنت تعرف بالطبع أنه لم يجد القصة.. لا النسخة الورقية ولا الذاكرة..

كان المفتاح في موضعه حيث تركه فوق المكتبة... لا توجد أي علامة على اقتحام الدرج.

راح يرتجف رعبًا.. هذه المرة قد صار الموقف يفوق قدرته على التعقل..

«مسكون!.. هذا البيت مسكون!»

قالها لنفسه لكنه لم يجسر على أن يخبر زوجته بقصته.. لقد كتب بدايات ثلاث قصص، وفي كل مرة تختفي القصة من الوجود كأنها لم تكن...

أنا لست مجنونًا.. البيت مسكون..

****

أيام طويلة مضت على مصطفى ولا شيء سوى الجدب.. لم يجلس أمام الكمبيوتر قط، ولم يحاول أن يبدأ قصصًا جديدة، فالأمر لم يعد قابلاً للتفسير، وكل ما هو غامض يثير الرعب في النفس.. الرعب قد شل قدرته على ابتكار أفكار جديدة، وقد قدر أنه لو تعرض لذات التجربة مرة أخرى فمن الوارد جدًا أن يجن..

القصص التي يبدؤها تزول من الوجود بلا تفسير، واحتمال أنه يتصرف من دون أن يعرف احتمال عالٍ جدًا ومخيف جدًا.. أنت تعرف أجواء دستويفسكي، كما أن عقدة فيلم (نادي القتال) لم تفارق خياله قط..

كلما فكر في الكتابة أصيب بالرعب.. ماذا لو استيقظ ليجد أن هذه القصة الجديدة اختفت؟

قالت له زوجته:
«أنت لا تفعل شيئًا على الإطلاق.. تمضي اليوم كله أمام التلفزيون»

قال وهو يبتلع ريقه:
«سدة الكاتب.. هذا وارد جدًا... لابد من فترة أنتعش فيها»

مصمصت بشفتيها وقالت:
«أرجو ألا تطول هذه الفترة.. الكتابة هي ما يبقي البيت مفتوحًا وليس لك دخل آخر.. قلت لك ألا تستقيل من عملك»

«سوف أستعيد قدراتي فلا تقلقي»

لكنه في الواقع كان يتساءل عن الطريقة العبقرية التي ستعيده للكمبيوتر.

اعتاد في الصباح الباكر أن يأخذ ابنته للمدرسة يوميًا ثم يعود في جو الصباح البكر.. يبتاع الجريدة وبعض الشطائر، ثم يرجع للبيت فيفطر ثم يواصل النوم حتى الظهر..

كان عائدًا في ذلك اليوم عندما لاحظ تلك البناية.. بناية عتيقة من طابق واحد، عليها لافتة تقول: «مكتبة الشباب». هنا توقف متصلبًا.. لم ير هذه البناية في حياته ولم يلحظ هذه اللافتة قط. إن هذا غريب. كان يعرف عن نفسه انعدام الملاحظة، لكن ليس إلى هذا الحد..

كانت من عاداته أن يمشي وهو ينظر للأرض، ومن النادر أن يرفع رأسه ليتأمل البنايات.. برغم هذا لا بد أنه مر أمام هذه البناية آلاف المرات فكيف لم يرها؟ الاحتمال الوحيد هو أن البناية وضعت اللافتة حديثًا، وهي بناية باهتة غير متميزة في شيء.

المثير في الأمر هو أن الباب كان مفتوحًا.. مكتبة عمومية في السابعة صباحًا!.. هذا غريب..

تغلب فضوله، فقرر أن يزور المكان. اجتاز بوابة حديدية مفتوحة صدئة، ومشى في ممر طوله متر على جانبيه تمثالان بدائيان لطائر العنقاء...

الباب الرئيس كان مفتوحًا فاجتازه..

هناك كان كاونتر، وخلف الكاونتر كان رجل قصير القامة أصلع الرأس مسن، ويضع عوينات سميكة. كان منهمكًا في قراءة مجلد عتيق.. رائحة الكتب هذه..

ما الذي يقرؤه الرجل بهذا الانهماك؟ كان يطالع مجموعة مجلدات مصفرة من روكامبول.. رجل مستحيل الزمن العتيق.. وكان يضع أمامه قدحًا تتصاعد منه رائحة القهوة الزكية.

لما شعر بدخول مصطفى رفع حاجبيه فوق إطار العوينات.. راسمًا علامة استفهام، وابتسم ابتسامة خافتة توشك على أن تشقق تجاعيد وجهه المسن..

«هل تبحث عن شيء معين؟»

ابتلع مصطفى ريقه وقال:
«لا أبحث عن كتاب بعينه... سأعرف الكتاب الذي أريده عندما أراه»

«هذه إجابة ذكية..»

قالها الرجل وهو يغلق المجلد ويمتص طاقم أسنانه وأردف:
«الكتاب الجيد يناديك من على الرف.. حتى قبل أن تعرف شيئًا عنه»

ثم فتح دفترًا أمامه وطلب من مصطفى أن يسجل بياناته.. الاسم والعنوان ورقم الهاتف.. ما أهمية هذه الخطوة؟.. لكن مصطفى لم ير خطرًا في ذلك، ولاحظ أن الصفحة تحمل أربعة أسماء فقط.. هذه المكتبة لا تلقى الكثير من الرواج..

«لم أرَ في حياتي مكتبة عمومية مفتوحة في هذا الوقت المبكر»

قال الرجل:
«هي ليست مفتوحة.. الحق أنها لا تغلق أبدًا!»

قال مصطفى لنفسه إنه بحاجة إلى فحص نظره.. لو كانت هذه المكتبة مفتوحة طيلة اليوم فلابد أنه معدوم الملاحظة تمامًا. في كل يوم يمر بها أثناء العودة من مدرسة ابنته فلم يرها إلا اليوم..

«ما هي طريقة الاستعارة؟»

«لا شيء... لدينا اسمك وعنوانك ونثق بأنك سترجع الكتاب خلال يومين»

وإذا لم أفعل؟ تساءل في ذهنه.. هذا الشيخ لا يبدو قادرًا على استعادة الكتب التي لا يعيدها أصحابها. حتى الاتصال بالشرطة يكلفه جهدًا فوق ما يطيق...

ثم أشار الرجل بما معناه أن تفضل.. فمشى مصطفى بين رفوف متلاصقة عليها حشد من الكتب العتيقة. الكتب التي كتب اسمها على ورق لاصق على الكعب شأن المكتبات العامة.. كانت مجموعة مبهرة فعلاً، وإن كان مصطفى واسع الثقافة مما جعل معظم هذه الكتب معروفًا بالنسبة له..

تولستوي... بوشكين.. هيمنجواي.. موم.. نجيب محفوظ.. فولتير.. توفيق الحكيم.. محمود تيمور.. الطيب صالح... كلهم هنا..

رائحة الكتب القديمة المغرية تملأ خياشيمه.. مشى بين الأرفف متسائلاً عن الكتاب الذي ينتقيه. الغريب أنه كان في المكتبة رف خاص لمجلدات مجلات سوبرمان والوطواط وميكي.. المكتبة اسمها مكتبة الشباب.. لكنها بالفعل مكان مغر جدًا.. من الصعب أن تفكر في كتاب غير موجود..

على أن بعض الأرفف كانت خالية.. لاحظ أن فهرسة الكتب تتم أبجديًا.. وقد كان يتأمل كتب مصطفى محمود ومصطفى صادق الرافعي ومصطفى المنفلوطي.. ثم وجد أن باقي الرف خالٍ تمامًا.. يبدو أن هناك من يستعير الكتب ولا يعيدها هنا.

في نهاية المكتبة توجد غرفة مغلقة.. لكن الباب عبارة عن زجاج مصنفر لا ترى ما وراءه، وكان الباب مغلقًا بقفل ثقيل، فقدر مصطفى أن الشيخ يسكن خلف هذا الباب.. لو كانت المكتبة لا تغلق فمن المؤكد أنه يبيت هنا..

لما دقق النظر أدرك أن القفل موضوع فعلاً لكنه لا يغلق أي شيء.. مثلما نثبت نحن أقفال بيوتنا في موضعها لمجرد عدم فقدها.. كان هناك مقبض في الباب..

خطر لمصطفى أن كل شيء غريب.. نظرة سريعة إلى ما وراء هذا الباب لن تضر أحدًا.. لن يلاحظ الشيخ أي شيء وهو في الجانب الآخر من المكتبة خلف عشرات الأرفف..

مد يده الراجفة وأدار المقبض..

هنا شهق من الدهشة..

****

المشهد بالداخل لم يكن غرفة على الإطلاق.. كانت قاعة فسيحة.. هناك رجال ونساء يجلسون إلى أجهزة كمبيوتر منهمكين في عمل غامض، وهناك تقسيمات بطريقة Cubicles تفصل مكان عمل كل واحد.

هناك فتية يمشون مسرعين وهم يحملون أوراقًا تحت إبطهم، وهناك منقي مياه في الركن، وستائر فينيقية تلقي ضوءها المقسم إلى شرائح على المكان. في خلفية القاعة مكتب مغلق يقف بجواره رجل أمن صارم، واللافتة تقول (المدير)! كل شيء يوحي بأنه دخل إلى شركة تتخذ مقرها هنا. شركة مشغولة جدًا كما هو واضح.

أوشك على التراجع.. لكن موظفًا قوي البنية يلبس قميصًا قصير الكمين وربطة عنق برز له، وجره من ساعده في حزم قائلاً:
«تأخرت!.. المدير ينتظرك!»

لم يجد الكلمات الكافية ليتساءل..

فقط وجد أن رجل الأمن يفسح له ويفتح الباب، ثم وجد نفسه في غرفة فسيحة تتوسطها مائدة اجتماعات.. على المائدة ملفات ودوارق ماء وبعض البسكويت، والدخان يعم هواء الغرفة من كثرة التدخين، وحول المنضدة جلس مجموعة من السادة المهمين ذوي النظرات الصارمة.. اجتماع مجلس إدارة كما هو واضح.

عند مكان الصدارة من المائدة – حسب قواعد البروتوكول – كان المدير.. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه المدير بأناقته وشعره الأشيب وكرشه والنظرة النفاذة القائدة في عينيه.

«انتظرناك طويلاً يا أستاذ مصطفى.. هلا تفضلت بالجلوس؟».

سحب مقعدًا وجلس وعشرات الأسئلة تزدحم على لسانه.. هم يعرفونه وكانوا ينتظرونه؟

وجد من يقدم له لفافة تبغ ويشعلها ومن يسأله عما يشربه فطلب قهوة. ثم نظر متسائلاً إلى المدير..

قال المدير وهو يجلس مسترخيًا:
«لا أستطيع شرح كل شيء.. محاولة تفسير الأمر بالنسبة لك عسيرة، لكن هذا ما نفعله طيلة الوقت.. ربما منذ ميلاد اللغة..»

«ما الذي تفعلونه؟»

«هذه هي المشكلة.. لن تفهم أبدًا»

ثم تبادل النظرات مع الجالسين الذين تحاشوا التقاء العيون بمصطفى، وقال:
«لنقل إننا نلاحق الأفكار الجيدة.. الأفكار الصالحة للاستكمال، وفي هذه الشركة لدينا ألوف مؤلفة من البدايات الموفقة»

تساءل مصطفى:
«هل يعني هذا أنكم شركة إنتاج سينمائي؟»

«ليس بالضبط.. إننا نهدي للعالم الأفكار التي قتلها أصحابها قتلاً.. نحن نستكمل القصص ونضعها في مكانها اللائق على رفوف المكتبة. لو لاحظت لوجدت أن هناك ركنًا ناقصًا حيث يوجد اسم مصطفى في المكتبة. هذا هو المكان الذي كان بينتظر إبداعاتك.»

كان يشعر بأنه يحلم.. هذه هلوسة لا شك فيها...

«وكيف؟ كيف وجدتم قصصي؟ وكيف مسحتموها من على جهاز الحاسب؟»

«إنا لا نخضع لقوانين مادية.. نتعامل بالأفكار ويمكننا الدخول لأي مكان وأخذ أي شيء.. غير أن هناك مشكلة..»

والتفت إلى أحد الجالسين ليكمل هو، فقال الرجل وهو شخص أصلع بدين يعرق بغزارة:
«فشل رجالنا في استكمال القصص.. لم يجدوا نهايات مناسبة، ومعنى هذا أن هناك أرواحًا معذبة تنتظر..»

«أرواحًا معذبة؟»

«نعم.. أبطال قصصك في وضع معلق.. القصة التي بلا نهاية تعذب أبطالها عذابًا لا يمكن وصفه».

أردف المدير:

«استكمال القصة يشبه دفن الميت.. خطوة إنسانية مهمة وتنهي الكثير من الصراعات والمشاكل.. إكرام الميت دفنه وإكرام القصة استكمالها!»

«وماذا تريدون مني؟»

قال المدير وهو يشعل سيجارًا:
«أن تجد لنا نهايات موفقة لبدايات قصصك!»

فتح مصطفى فمه ليعترض.. هو لا يذكر الأحداث، وهو لم يعتد قط العودة لقصة نبذها، لكنه فوجئ بالجالسين ينهضون بلا كلمة... فجأة وجد أنه يجلس وحيدًا إلى منضدة الاجتماعات، فقط قال له المدير وهو ينصرف:
«تذكر أنك ستبقى معنا لفترة إلى أن تنهي القصص!!»

وفجأة شعر مصطفى بأن معالم القاعة تتغير.. تذوب.. كأنه من تأثيرات الخدع السينمائية المعروفة بالكروما. لقد صار يقف في ظلام الليل وسط الرمال..

هناك صخب وصوت طبول من بعيد، وهناك شباب يرقص على مرمى النظر.. هناك مشاعل متناثرة على الشط تلقي بدوائر من الضوء الذهبي. عندما دقق النظر رأى أنه يرى شابًا وفتاة. الفتاة تلبس ما يشبه ثوب بحر لكنها تلف إزارًا حول نصفها الأسفل..

قال له الشاب:
«أنت أتيت في الوقت المناسب.. يجب أن تفعل شيئًا!.. سلمى توشك على التجرد من ثيابها..»

أصيب مصطفى بالذهول. هو يعرف هذين ويذكر هذا الموقف الذي لم يستطع أن يستكمله. سلمى ستؤدي رقصة شهوانية مقابل أن تطلب من الشاب شيئًا.. ما هو هذا الشيء؟

كانت الفتاة تواصل الرقص وتتخلى عن قطعة من ثيابها في كل مرة، بينما د. عدنان مذهول يرتجف.. كان أقرب للرعب منه إلى الإثارة..

مال عليه مصطفى هامسًا:
«أنت لم تعط أي وعد.. لست مطالبًا بشيء.. عندما تنتهي هذه الفقرة الاستعراضية يمكنك أن ترحل بعد ما تكون قد أشبعت عينيك!!»

«وما الذي ستطلبه هي؟»

«لا أعرف.. لكنه بالتأكيد شيء قاس أو محرم أو غير قانوني.. هذه هي الأشياء التي تستأهل هذا الثمن.. لن تطلب منك أن تتزوجها.. أنصحك ان ترحل قبل موعد دفع الثمن»

همس د. عدنان في ضيق:
«لربما معك حق، لكن هذه ليست طريقة محببة لسرد القصص. إن هذا يحبط القارئ كثيرًا»

«لكنه حل لا بأس به.. سوف تفرغ هي من عرضها الشائق، هنا توجه لها عبارة شكر، وتعود ببساطة لتنضم إلى رفاقك... هذه قصة مسلية.. المقلب الذي شربته فتاة حاولت أن تكون سالومي.. سوف يعلمها هذا أن أحدًا لا يدفع ثمن شيء حصل عليه فعلاً.. في المرة القادمة عليها أن تحصل على مطلبها قبل أن ترقص»

ولم ينتظر الباقي.. ترك عدنان يقف في بلاهة يراقب عرض الاستربتيز، ومشي وسط الرمال مبتعدًا... خطر له أن ينظر للخلف، لكن لماذا؟ سلمى ولدت من أفكاره وليس فيها شيء جديد..

مشي وسط الرمال لفترة ثم رأى أمامه طريقًا مظلمًا مقفرًا..

كشافات سيارة واقفة هناك..

ثم رأى سيارة أخرى تقف على بعد خطوات منها...

عندما اقترب أكثر أدرك أن هناك سيارة خالية وأن هناك رجلاً يقف في حيرة وهو يحمل (جركن) كبيرًا وينظر حوله.. كان هذا هو راكب السيارة الثانية..

التقت عيناه في ضوء الكشاف بالرجل، فقال له في رعب:
«لا أجد رأفت صديقي.. لقد جلبت له البنزين كما طلب مني»

بدأ مصطفى يفهم..

سأل الرجل في حيرة:
«أنت تدعى ما.. ما..»

«مازن.. أنا محام.. اتصل بي يطلب أن أوافيه هنا وشرح لي مكانه»

ثم استرخى ليستند إلى غطاء السيارة الواقفة وقال:
«كيف تنوي أن تنهي هذه القصة؟»

****

كان مصطفى يفكر وهو يدور حول السيارة الواقفة.. الرابضة كوحش نائم في الظلام..

عندما انحنى جوار الرفرف رأى قطرات.. دقق النظر على ضوء المحمول فأدرك أنها قطرات دم متناثرة. رفع عينه نحو مازن وابتلع ريقه..

«ثمة أشياء مريبة هنا»

ثم راح يتابع قطرات الدم على الأرض الترابية... كان الدم أحمر لم يتخثر بعد، وكانت المسافة بين قطرة وأخرى تزيد على متر.. لم يكن نزفًا غزيرًا كما هو واضح..

هتف مازن بصوت مبحوح:
«هل تعتقد أنه.. أنه؟»

لم يرد مصطفى.. المفروض أنه الوحيد الذي يعرف ما حدث لكنه بالفعل لا يملك أدنى فكرة. مضى يتابع قطرات الدم حتى بلغ صف الأشجار ومشى بينها باحثًا عن أثر الدم. هناك خلف الشجرة الثالثة رأى ما بدا له كأنه كتلة دامية.. عندما دقق النظر أكثر رأى أن هذه ذراع مبتورة..

وقف يبتلع ريقه، بينما لحق به مازن يتساءل عما هنالك.. رأى ما رآه فشهق، ثم انحنى يتفحص الساعة المحيطة بالمعصم وهتف:
«ساعة ذات إطار ذهبي.. هذه ساعته فعلاً..»

ما الذي حدث له؟

لا أحد يعرف.. لكن مازنًا قال في توحش وهو يضغط على أسنانه:

«هذه قصتك.. أنت من فعلت هذا به!»

قال مصطفى وهو يتراجع:
«صدقني أنا لا أملك أي فكرة عما حدث.. لم أكتب هذا.. لقد أوقفت القصة عند هذ الحد لأنني لم أستطع استكمالها»

مازن وثب عليه ثم سدد له لكمة مؤلمة في فكه.. وقبل أن يتأهب مصطفى، تلقى ركلة في قصبة ساقه جعلت قلبه يتوقف للحظة، وفي اللحظة التالية وجد نفسه على الأرض يحاول انتزاع اليد التي تحاول أن تطبق على عنقه.. هواء.. لابد من هواء. ستكون قصة طريفة في حد ذاتها عندما يقتل بطل القصة مؤلفها.. لكن لا وقت للتذوق الأدبي هنا. هواء!

في اللحظة التالية رأى شيئًا مروعًا يزحف من الخلف.. الشيء الذي مزق ذراع رأفت.. الشيء الذي يثير رعب الناس من هذه الفلاة.. الشيء الذي لم يستطع قط أن يتخيله. لم يكن خياله قادرًا على تخيل شيء كهذا.. لكنه استطاع أن يعرف اسم المسخ دون أن يخبره أحد: الخاريص... لا يعرف من أين جاء هذا الاسم لكنه كان يعرف أنه صحيح.

صرخ في رعب بصوت مختنق:
«اتركني يا أحمق!.. الشيء!».

مازن واصل الضغط على عنقه في توحش. في اللحظة التالية التف الذراع المخيف الشبيه بممصات الأخطبوط حول صدره.. وبعد لحظة كان هذا الصدر بالذراعين ساقطًا على العشب على بعد أمتار.. وإن ظل حوضه وفخذاه حول جسد مصطفى... كأنه كان مستمرًا في الضغط بانعكاس النخاع الشوكي..

صرخ مصطفى بأعلى صوته.. الغوث!

أنت من صنع هذا المسخ.. القصة قصتك وأنت الوحيد القادر على عمل شيء..

المسخ الذي مزق رجلين في ربع ساعة.. ومن الواضح أنه سيمزق الثالث حالاً....

هرع إلى السيارة الواقفة.. غالبًا هي سيارة مازن، ووثب خلف المقعد وأدار المحرك.. رأى الخاريص يتقدم.. يقف أمام السيارة متأهبًا للوثب.. تراجع للوراء، ثم أدار العجل متهيئًا للفرار... لكن المسخ ركض بسرعة أكثر وتمسك بالرفرف الأمامي، وبلا جهد تقريبًا رفع السيارة لتصير في وضع شبه عمودي على الأرض.. مرتكزة على عجلتين فقط.

فتح مصطفى الباب الثاني ووثب منه إلى الخارج وتدحرج على الأرض..

سقطت السيارة بدوي مدوّ لتستقر على عجلاتها الأربع.. بينما عاد المسخ يتجه نحوه...

هنا على بعد متر منه وجد جركن البنزين الذي تركه مازن في مكانه. زحف نحوه وفتحه ثم هب واقفًا وقذف البنزين كله على الشيء المخيف.. لابد أن علبة الثقاب ما زالت في جيبه.. هاهي ذي!.. بسرعة وبيد مرتجفة حك العود بالعلبة ثم ألقى به مشتعلاً على الخاريص.

فاااااااام!.. اشتعلت النيران في الشيء.. كان مشهدًا كابوسيًا خاصة مع ضخامة حجمه وشراسته.. راح يتلوى يمينًا ويسارًا ثم سقط أرضًا وبدأ يتحول إلى غبار..

رائحة البنزين تزكم الأنف.. الليل يكتم أنفاسه حتى لا يصاب بالربو..

وقف مصطفى يلهث لكنه اعترف لنفسه بأن الخاريص رائع. لا يوجد مسخ مثله في عالم الأساطير. هو لم يخترعه لكن من المفترض أنه اخترعه وهذا يجعله عبقريًا بحق. سوف يستعمله فيما بعد في قصص أخرى بالتأكيد.. هناك حيل دائمة لدى الكتاب تعيد هذه المسوخ للحياة. اقترب أكثر ليتأمل الرماد.. هنا رأى أطرافًا بشرية متفحمة.. عيونًا متفحمة.. جماجم ذائبة...

بدأ يفهم.. الخاريص لا حجم له ولا كتلة.. إنه يتكون من جثث ضحاياه ويكبر بلا توقف. لابد أن بين هذه البقايا جثة رأفت.. أما جثة مازن فلم يتسع لها الوقت....

لم يكن متأكدًا مما إذا كان هذا الشيء قادرًا على أن يصحو من الرماد.. كل شيء ممكن. هذا مسخ لا تعرف أنت عنه شيئًا، ومن قوعد أفلام الرعب أن الوقوف طويلاً أمام جثة الوحش الصريع خطر.. من الوارد أن ينهض من جديد..

هكذا هرع إلى السيارة وأدار المحرك..

انطلقت السيارة مبتعدة عن المشهد، وسط الظلام الدامس الكثيف. تنهد الصعداء وهتف بأعلى صوته:
«هذه قصة أخرى قد انتهت يا سادة.. وهي نهاية مرضية لكم. المسخ يقتل.. المسخ يموت..»

ثم أردف:
«هل لكم أن ترجعوني لعالمي؟»

في اللحظة التالية كان يجلس في قاعة الاجتماعات إياها.. مجلس الإدارة أو الهيئة التنفيذية. المدير الأشيب والأصلع البدين ودخان السجائر المنعقد في الهواء. ثمة شاشة جانبية تعرض مشاهد من القصة الأخيرة ومواجهة الخاريص. كان بعضهم يلتهم وجبة سريعة يبدو أنها طعام الغداء..

وجد نفسه جالسًا إلى المنضدة وأمامه كوب كولا وشطيرة دجاج مقلي بالمايونيز..

«كل يا أستاذ مصطفى.. لابد أنك جائع»

قال الرجل البدين في حماسة:
«الخاريص كان جيدًا فعلاً.. لقد قررنا ألا تكون هذه نهايته. في قصة أخرى سوف نكتشف أنه يعيد تجميع بقاياه وينهض.. من المفيد أن يبقى هذا الوريد الثري»

ابتلع المدير بعض الكولا وقال:
«لكن النهاية كانت أسهل أكثر من اللازم.. وحش بهذه الصفات كان يجب أن يتعب البطل أكثر.. يجب أن يموت مرارًا ونحسبه انتهى ثم ينهض ثانية»

قال رجل ثالث:
«ثم أن الحل لم يأت من الأبطال.. جاء منك أنت.. أي أنك أقحمت إقحامًا على القصة.. الكاتب يتدخل من خارج القصة وليس من داخلها»

قال مصطفى في إرهاق وهو يلوك اللقمة:
«لم أتدخل.. لم أفعل أي شيء على الإطلاق»

قال المدير:
«على كل حال، سوف نرى كيف ستكمل لنا قصة أخرى.. تذكر أنك لن تعود لعالمك قبل أن تعطينا قصصًا مرضية...»

وبدأ مصطفى يشعر بأن الغرفة تظلم تدريجيًا.. وشم رائحة الغبار.....

****

هناك كان واقفًا في الغرفة المظلمة التي أوصد بابها..

استطاع أن يرى عاصمًا كما تخيله بالضبط.. العرق يبلل جبينه مع الغبار.. تحت إبطيه مبتل تمامًا وهو يحاول فتح باب الحجرة الذي انغلق بلا إنذار..

على الأرض كانت عظام مبعثرة.. عظام نقية من التي وجدها في الصندوق، وكانت الحيرة مرتسمة على ملامحه..

«هناك من أغلق الباب علينا!»

بالطبع يستطيع بطل قصته أن يراه ويتفاعل معه، لكنه كان يعرف أن الباب لم يغلق من الخارج.. لقد أغلق من الداخل.. الشيء الكامن في الغرفة فعل هذا..

هتف عاصم وهو يجذبه من ياقة سترته:
«من فعل بنا هذا؟ ما سر هذه الغرفة؟»

لم يرد.. لم يكن يملك كلمات يفسر بها أي شيء.. لقد تخلص من هذه القصة وفقد علاقته بها، والآن تطالبه القصة بإثبات النسب.. لكنه مضطر للعثور على حل إذا أراد أن يغادر عالم الشركة..

تحسس الهاتف المحمول وكما يتوقع كانت الشبكة صفرًا....

أضاء ضوء الهاتف المحمول، وراح يفتش في أركان الغرفة..

كانت هناك حقيبة جلدية بالية في الركن عليها كومة من الغبار.. وكانت أنسجة العناكب تغلفها. مد يده والتقطها في حذر.. لا يضمن المرء ما قد يقابله في هذا الوكر. لغز الحقيبة والصندوق الأبدي..

فتح الحقيبة بصعوبة بالغة.. كانت تحوي مجموعة من الأوراق، وحشدًا من البطاقات أو الكارنيهات المغبرة موضوعة في كيس من البلاستيك..

ما هذا بالضبط؟ ثمة كارنيه لمحصل كهرباء اسمه عباس أبو مندور... ثمة بطاقة شخصية لموظف في شركة المياه.. هناك كارنيه آخر لعامل هاتف.. بطاقة موظف كهرباء..

نظر للغرفة وإلى الحقيبة.. سمع عاصمًا يتساءل:
«ماذا وجدت؟ علام الصمت؟»

كان الجواب يقترب من مصطفى.. يوشك على أن يلمسه بيده.. عظام نظيفة تمامًا.. لا توجد رائحة عفن.. الجيران لم يشموا أي شيء..

فتح الحقيبة وسكب ما فيها على الأرض.. هنا رأى المثقاب والمنشار والسكين العملاقة. كلها مغطى بالصدأ لكنها تحمل رسالة بليغة..

أغلق الحقيبة وقال لعاصم:

«لو كان هؤلاء أشخاص قتلوا وتعفنوا هنا لعمت الرائحة الكريهة وشكا الجيران.. كما حدث مع ريا وسكينة. لكن هذه عظام نظيفة براقة كأن هناك من قام بتنظيفها.. التعفن لا يدع العظام بهذه الحالة النظيفة. وكل البطاقات تدل على أشخاص قرعوا الباب يومًا.. هل تعرف ما حدث وفق تفسيري الخاص؟».

«لا أفهم».

«أبوك غريب الأطوار الذي يعيش في عزلة قد قتل أكثر من موظف مر على الشقة.. غالبًا كان يقدم لهم مشروبًا فيه منوم، وعندما يفقد الموظف الوعي يقوم بتمزيقه والتهامه!.. وفي النهاية جن واعتزل العالم.. أعتقد أنه كان أضعف من أن يمارس هذا مع الخادمة التي كانت تعنى به، وهي لم تدخل هنا قط».

«أنت مجنون!»

«أبوك كان غولاً!.. عليك أن تقبل هذه الحقيقة الأليمة».

انفجر الرجل في حشد من الشتائم والهستيريا والاعتراض.. لكنه بعد لأي قرر أن هذا على الأرجح هو التفسير الصحيح، ما دام مؤلف القصة هو من قال هذا.. بدأ يهدأ نوعًا. لكنه لم يقبل الحقيقة..

«يبقى لغز من أوصد الباب علينا».

قال مصطفى في ثقة:
«لابد أن قوى الشر تستحوذ على هذا المكان.. إنه مكان مسكون لو أردنا الدقة بعد كل ما سفك فيه من دم. لن أندهش لو كان شبح أبيك هو من أغلق الباب علينا..».

اندفع عاصم في غيظ نحو المطرقة التي فتح بها الصندوق، وهرع نحو النافذة الموصدة.. وأوسع المقبض ضربًا:
«لو ظننت أنني سأبقى هنا أسمع هراءك فأنت مخطئ».

واصل الضربات على المقبض.. بعد قليل تداعى القفل، وصارت النافذة قابلة للفتح.. حرك الضلفتين فتساقطت سحابة كثيفة من الغبار والحشرات.. ثم ظهر شيش خشبي بالٍ...

لم يحتج لجهد هذه المرة كي يفتح المصراعين، وتسلل النور والهواء أخيرًا إلى الغرفة المقبضة..

أخذ شهيقًا عميقًا ثم نظر إلى الشارع.. كان هذا هو الطابق الرابع.. الشارع خالٍ ولا أحد يمشي فيه.. من الواضح أن الصراخ بلا جدوى.

نظر أسفل النافذة.. ثم قال وهو يفكر:
«هذا الإفريز تحت النافذة.. لو مشيت عليه في حذر لوصلت إلى (منور) السلم..»

«لا أحب هذه الفكرة.. أعتقد أننا لو بقينا هنا وحاولنا المزيد من الصراخ.....»

قال عاصم وهو يضع ركبته على إطار النافذة:
«لو بقينا حتى تحل الساعة فلن يسمعنا أحد.. سوف أحاول ببطء شديد ولنرَ».

لم يجد مصطفى الوقت ليعترض.. لقد خطا الرجل خارج النافذة وهو يتمسك بالشيش.. ثم وضع قدميه على الإفريز، وبدا الارتياح على وجهه.. قال وهو يلهث:
«جميل... سوف أتحرك ببطء شديـــ.....»

وفجأة أطلق صرخة قصيرة وهو ينظر خلف كتف مصطفى.. وهتف :
«أبي!.. لا!».

ثم دوت صرخته وهو يسقط من حالق نحو الشارع...

التفت مصطفى للخلف فلم ير شيئًا ولا أحدًا.. الغرفة المغبرة الكئيبة جاثمة كما هي..

فقط يمكنه أن يضع كلمة النهاية.....
النهاية

من جديد وجد مصطفى نفسه في قاعة الاجتماعات.. السادة الجالسون والمدير والمشروبات والشطائر. كانوا يصفقون ويدقون على المنضدة محيين..

كان مذهولاً لا يعي ما يدور، فقال المدير وهو يشعل سيجارًا:
«نهاية دامية لكنها نهاية على كل حال.. بعض القراء لا يحبون هذا.. يفضلون النهايات السعيدة، لكنك قدمت نسيجًا لا بأس به... أهنئك».

قال الرجل البدين:
«ليس أسوأ من قصة لم تكتمل.. معظم الناس يكرهون النهايات المفتوحة، لكن ما فعلته أنت هو النهايات المبتورة.. شيء يشبه السمفونية الناقصة لليست.. وهذا لا يجعل الأمور أجمل».

قال مصطفى وهو يلهث نافد الصبر:
«لقد أكملت القصص كلها يا سادة.. أرجو ان تسامحوني لو طلبت الانسحاب من هذه الجلسة الممتعة..».

تبادل الرجال النظرات.. ثم قال المدير بعد ما تنحنح:
«بالطبع يمكنك الخروج للمكتبة..».

هز رأسه محييًا واتجه إلى الباب.. عبر الردهة التي يعمل فيها الْكتّاب.. ثم أزاح الباب الذي دخل منه، فوجد نفسه من جديد في المكتبة العمومية.

مشى بين الأرفف.. هنا استلفت نظره تحت اسم مصطفى اسمه هو.. هناك ثلاث قصص.. الغرفة.. لقاء مع سالومي.. وحيد في الظلام.. لقد اكتملت القصص فعلاً..

مشى بين الأرفف قاصدًا الباب..

أمين المكتبة.. نظر له الشيخ الأصلع الذي يطالع روكامبول.. رفع حاجبيه متسائلاً، فقال مصطفى: «شكرًا لضيافتك».

نظر له الشيخ في دهشة كأنه يرى أحمق ولم يتكلم.. هنا فوجئ مصطفى بأنه لا يوجد باب للمكتبة. الباب الذي دخل منه غير موجود....

«أين الباب؟ إن حاسة اتجاهي سيئة فعلاً».

قال الشيخ وهو يتثاءب:
«لا يوجد باب يا بني».

«ماذا تعنيه؟».

«ألم تفهم بعد أنك قصة لم تكتمل يكتبها مؤلف آخر؟... هو كتب القصة حتى هذه النهاية، ولا أحد فينا يعرف ما سيحدث بعد ذلك.. المؤلف فقط يعرف كيف ينهي الموقف وكيف يخرجك من هنا!».

ثم أشار إلى مقعد جواره:
«لو كنت مكانك لجلست أطالع رواية طويلة ممتعة.. الحرب والسلام أو إيفانهو مثلاً.. إن جلستك هنا سوف تطول على ما أرى!».

تمت